

صُور من الصراع الصليبي المملوكي في مصر (648-692هـ/1250-1293م)

Pictures of the Crusades Mamlukes Conflict in Egypt(1250-1293 ad/648-692h)

د. عمر سي عبد القادر*
جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان/الجزائر
si62sh@yahoo.com

تاريخ الإرسال: 2021/07/30 تاريخ المراجعة: 2021/08/15 تاريخ القبول: 2021/10/04

الملخص:

مع منتصف القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي (7هـ-13م) شهدت مصر تحولاً كبيراً، حيث تمكن المماليك من الوصول إلى السلطة بعد تفكك الدولة الأيوبية، وقد واجه المماليك مشاكل كثيرة كان أبرزها الخطر المغولي ثم الخطر الصليبي، وقد عمل المماليك على مواجهة هذه الأخطار بكل حزم وقوة، حيث استمروا على نفس سياسة الأيوبيين رغم المشاكل الداخلية العديدة التي واجهت هذه الدولة، ومن أبرز السلاطين الذين تحملوا عبء المواجهة، السلطان الظاهر بيبرس (658-678هـ/1260-1279م) رابع سلاطين المماليك، تولى السلطة بعد مقتل المظفر قطز بطل عين جالوت، والناصر قلاوون وأسرته، ويعتبر سيف الدين قلاوون (678-689هـ/1279-1290م) أبرز سلاطين هذه الأسرة، وهو السلطان السابع من المماليك في الديار المصرية وفي عهد هذا السلطان ظهرت فئة جديدة من المماليك وهم الجركس، وقد واصلت هذه الأسرة الاضطلال بدورها التاريخي في مواجهة الصليبيين. وفعلا فقد تمكن المماليك مع نهاية القرن السابع الهجري من وضع نهاية للوجود الصليبي في المنطقة، رغم

* د. عمر سي عبد القادر، جامعة تلمسان/الجزائر.

أن المماليك ليسوا أصحاب السلطة الشرعية إلا أنهم أوقفوا الزحف الصليبي والمغولي على البلاد العربية.

الكلمات المفتاحية: المماليك، مصر، بلاد الشام، الصليبيين، الإسلام، الصراع، السلطان بيبرس، الناصر قلاوون،

Abstract

In the middle of the seventh century, AH the thirteenth century AD, Egypt underwent a major transformation, with the Mamluks gaining access to power after the dissolution of the Ayyubid state. The Mamluks faced many problems, most notably the Mongol and later the Crusader. The Mamluks have resolutely and forcefully confronted these dangers, continuing with the same policy as the Ayyubids, despite the many internal problems facing this country. Among the most prominent sultans to bear the burden of confrontation, Sultan Baybars, the Mamluks fourth sultan, took power after the murder of Muzaffar Qutaz, the hero of Ain Goliath, Al-Nasser Qalawun and his family, Saif al-Din Qalawun was the most prominent sultan of this family. He is the seventh sultan of the Mamluks in Egypt. In the reign of this Sultan, a new class of Mamluks emerged, called the Greks.

By the end of the seventh century, the Mamluks were able to put an end to the Crusader presence in the region, although the Mamluks were not the holders of legitimate authority, but they stopped the Crusader and Mughal advance into Arab countries.

Key words: Mamluks, Egypt, the Levant, conflict, Crusaders. Islam. Nasser Qalawun. Sultan Baybar

مقدمة:

عرفت بلاد المشرق الإسلامي تحولات سياسية هامة أفرزتها عدة تطورات بداية من الزحف المغولي على المنطقة حيث تم إسقاط الخلافة العباسية في بغداد، ومن جهة أخرى اشتدت الحركة الصليبية ضد العالم الإسلامي بصفة عامة ومصر وبلاد الشام بصفة خاصة، هذا الوضع دفع ببعض الزعماء الى تبني الجهاد كوسيلة لرد هذه الهجمات على بلاد المشرق، ومن ابرز تلك الشخصيات صلاح الدين الأيوبي (532-

589/1135-1193م) الذي تولى الوزارة في عهد الخليفة العاضد الفاطمي، وبفضل ذكائه وشجاعته تمكن من القضاء على الخلافة الفاطمية من خلال محاربته للمذهب الشيعي وتشجيع المذاهب السنية، وبعدها سيطر على مصر وعمل على توحيد الجبهة الإسلامية لينتقل إلى مرحلة الجهاد ضد الصليبيين، وقد توجت هذه المواجهة باستعادة بيت المقدس سنة 583هـ/1181م بعد الانتصار الباهر في معركة حطين، ولذلك يعتبر صلاح الدين المؤسس الحقيقي للدولة الأيوبية، إلا أنه بعد وفاته ساد الخلاف والتمزق والانقسام حيث ظهرت وحدات سياسية يحكمها أبناء الأسرة الأيوبية، ورغم هذا الانقسام إلا أن الدولة الأيوبية تمكنت من إفشال أضخم الحملات الصليبية على العالم الإسلامي، وهذا ما ساهم في تدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية وبالتالي نهاية الدولة في عهد نجم الدين أيوب ليفسح المجال أمام ظهور دولة جديدة حملت هي الأخرى مهمة محاربة الصليبيين والمغول، وهي دولة المماليك.

هذه الدولة توسعت لتشمل مصر وبلاد الشام والحجاز وعمرت ما يقارب قرنين ونصف من الزمن، (648-922هـ/1250-1517م) وكانت هذه المدة حافلة بالإنجازات العسكرية في مواجهة الصليبيين، فإلى أي مدى تمكن المماليك من مواجهة الحروب الصليبية؟ ومن هم أبرز السلاطين الذين واجهوا الصليبيين؟ وهل أثرت هذه المواجهة على القدرات العسكرية للدولة؟ وللإجابة على هذه الإشكالية اتبعت المنهج التاريخي، لتحليل المادة العلمية والوصول إلى حقائق تاريخية تبين دور المماليك في مواجهة الصليبيين.

وللموضوع أهمية بلغة إذ يهدف إلى تسليط الضوء على مرحلة حاسمة من التاريخ الإسلامي، خاصة وأن هذه الدولة التي أسسها الرقيق الأسوي كانت من أبرز الدول التي دافعت عن الأقاليم العربية سواء ضد الصليبيين وحتى المغول، وفعلا كانت أبرز الإنجازات التي حققها المماليك هي توقيف المد الصليبي والمغولي على المنطقة العربية.

1. دولة المماليك في مصر:

بعدد أصل المماليك إلى الرقيق الأبيض الأسوي، وموطنهم الأصلي بلاد قفجان، (ينظر التعليق رقم 1) وكان هؤلاء يصبحون رقيقا نتيجة أسرهم في الحروب أو شرائهم أطفالا من أسواق النخاسة، ويقوم السلاطين باختيار أحسنهمقامة وصحة لتدريبهم عسكريا واستخدامهم في الجندية، (ينظر التعليق رقم 1) وينسب المماليك إلى

سادتهم الذين اشتروهم مثل الممالك الظاهرية، وأحيانا الى التاجر الذي جلبهم. (قاسم عبده قاسم، 1996م، 25)

ويعود استخدام هذا النوع من الرقيق في الجيوش الإسلامية الى العهد العباسي (132-656هـ/750-1517م)، حيث اعتمد بعض الخلفاء على الممالك لتوطيد نفوذهم وسلطانهم وكان ذلك في عهد الخليفة المعتصم (218-327هـ/833-842م)، (ينظر التعليق رقم 2) الذي استخدم جماعة من الأتراك، (المسعودي، 2003م، ج4، ص53) وفي العهد الفاطمي أضيف عنصر جديد من الممالك وهم الصقالبة، والطريقة نفسها تنطبق على الدولة الأيوبية (566-648هـ/1171-1260م) خاصة بعد ضعف هذه الدولة بعد وفاة صلاح الدين (595هـ-1198م)، واشتد الصراع بين أمراء بني أيوب بعد استقل كل واحد بإمارة يحكمها لنفسه، حيث سعى كل حاكم إلى الإكثار من شراء الممالك والاعتناء بتربيتهم ليكون سند له في الصراع، (العبادي أحمد المختار، 2000م، ص231) وبعد انهيار الدولة الأيوبية (571-648هـ/1175-1250م) قامت مقامها دولة الممالك والتي مرت بمرحلتين، مرحلة الممالك البحرية من 648 الى 784هـ/ 1250 الى 1382م ثم انتقلت السلطة الى الممالك البرجية 784 الى 923هـ/ 1382 الى 1517م.

1.1. الممالك البحرية. (648-748هـ/1282-1250م)

لقد أكثر السلطان نجم الدين أيوب (637-647هـ/1240-1249م) (ينظر التعليق رقم 3) من شراء الممالك الأتراك حتى أصبح أكثر جيشه منهم، وقد اختار لهم جزيرة الروضة أو قلعة الجزيرة على ساحل النيل لتكون مركزا لهم لذلك سميت هذه الفرقة بالبحرية، (المقريزي تقي الدين، 1998م، ص238) كما سميت أيضا بالصالحية نسبة إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب. (ابن ثغري بردي جمال الدين، 1990م، ص216). لقد كان معظم هؤلاء الممالك من الاتراك المجلوبين من قفجاق (ينظر التعليق رقم 4) شمال البحر الأسود، أو من بلاد القوقاز قرب بحر قزوين، وقد عمل السلاطين على تربيتهم تربية عسكرية تعتمد على تعلم فنون الحرب وركوب الخيل وممارسة شتى أنواع الرياضة والمبارزة لمعرفة مهارتهم، إضافة إلى تعلم مبادئ الدين الإسلامي والقرآن

الكريم، وقد كان لهذه الفرقة دور كبير في تحقيق الانتصار على الصليبيين لذلك زاد نفوذهم أكثر وأصبحوا أصحاب الفضل في إنقاذ البلاد من كل الأخطار.

وفي سنة 647هـ/ 1249م توفي نجم الدين أيوب عن عمر ناهز الأربع والأربعين سنة أثناء حملته على الصليبيين، فأخفت زوجته وجاريته شجرة الدر (ينظر التعليق رقم 5) موته، وأرسلت في طلب ابنه توران شاه من الشام، فعاد الى مصر وتولى السلطة، إلا أنه لم يحسن التعامل مع رجال الدولة ومع زوجة أبيه شجرة الدر ولذلك قتل بعد شهرين من توليه الحكم سنة 648هـ 1250م، وبذلك تنتهي دولة بني أيوب. (المقديسي أبو شامة، 1992م، ص 158)

بعد هذه الحادثة اجتمع الأمراء وأهل المشورة واتفقوا على تنصيب شجرة الدر ملكة على مصر باعتبارها من ناحية الأصل أقرب الى المماليك فقد اعتبرت أول ملك يحكم مصر من المماليك، ولما أحست بالحرَج باعتبارها أول امرأة تحكم مصر، كانت توقع المراسيم باسم أم خليل صاحبة الملك الصالح حتى تضفي على حكمها نوع من الشرعية. (ابن الوكيل شهاب الدين، 1994م، ص 100) ورغم هذا فقد ظهرت الخلافات حول حكم امرأة للمسلمين سواء من العلماء أو الخليفة العباسي، ولهذا فقد خلعت نفسها وتزوجت الأمير عز الدين أيبك (648-655هـ/ 1250-1257م)، هذا الأخير واجهته مشاكل عديدة كان أبرزها معارضة الأيوبيون في الشام، ولتفادي هذه المعارضة جعل إلى جانبه أميراً أيوبياً صغير السن وهو الإشرَف موسى بن يوسف، وبعدها تمكن من الانفراد بالسلطة خاصة بعد ظهور خطر التتار، فابعد الملك الأشرف وبذلك تبدأ مرحلة حكم المماليك البحرية، (ابن ثغري بردي جمال الدين، 1992م، ص 63) حكمت هذه الفرقة مصر مدة قاربت 140 سنة تولى فيها 30 سلطانا الحكم من أبرزهم عز الدين أيبك وسيف الدين قطز (ينظر التعليق رقم 6) والظاهر بيبرس و المنصور قلاوون و الأشرف صالح الدين خليل، وقد كان لهؤلاء دور كبير في محاربة النصارى والتتار.

2.1. المماليك البرجية (الشراكسة) 784-923هـ 1282-1517م:

ارتبط ظهور المماليك البرجية بالسلطان قلاوون (678-689هـ/ 1279-1290م) (ينظر التعليق رقم 7) الذي كون طائفة جديدة من المماليك خاصة به تختلف أصولها عن الطوائف المملوكية الأخرى، حيث اختار عنصرا من القوقاز أطلق عليهم الجركس أو

الشركس، وتسمى هذه الفرقة بالبرجية لأن السلطان قلاوون أنزلهم في أبراج القلعة وحرص على تربيتهم تربية دينية وعسكرية، وقد بلغوا في نهاية عهده أكثر من ثلاثة آلاف مملوك، (الشرقاوي عبد الله، 1996م، ص 100) وقد زاد دور هذه الفرقة في عهد السلطان قلاوون من خلال دورهم الكبير في هزيمة التتار، ومن أبرزهم برقوق الذي تمكن من الوصول إلى أتابيك العسكر سنة 780هـ 1378م وعمل على التخلص من معارضيه ثم أزاح السلطان الصغير الصالح حاجي واعتلى العرش، وتلقب بالظاهر وبذلك انتهت دولة المماليك البحرية بمصر. (ابن الوكيل شهاب الدين، 1994م، ص 65)

لقد حكم المماليك الجراكسة أكثر من 130 سنة تعاقب خلالها على السلطة ما يقارب 26 سلطانا تجاوزت مدة أربعة منهم 77 سنة وحكم ستة، آخرون حوالي 44 سنة بينما السلاطين 15 الباقين فقد كانت مدة حكم كل واحد منهم أقل من سنة، بل بعضهم لم تزد مدة حكمه اليوم واللييلة، ومن أهم الأحداث البارزة في هذه المرحلة الوقوف في وجه تيمورلنك خاصة في عهد السلطان برقوق، أما الحدث الثاني فهو فتح جزيرة قبرص في عهد السلطان الأشرف برسباي سنة 825هـ 1426م، وقد كان آخر سلطان حكم هذه الفرقة هو طومان باي (622-623هـ/1516-1517م) الذي امتنع في البداية عن السلطة بعد مقتل قانصوه الغوري لمدة خمسين يوما خوفا من غدر المماليك، إلا أنه قبل بها في النهاية تحت ضغط رجال الدين في مصر، نظرا لما كان يتمتع به من صفات الاعتدال والزهد وحسن السياسة، كما كان شديد الحب للآداب والعلوم والشعر، إلا أن المواجهة مع الدولة العثمانية حالت دون إصلاح أحوال الدولة، وقد قتله العثمانيون بعد معركة الرايدانية 923هـ/1517م وهو السلطان السابع والأربعين لدولة المماليك، وبذلك ينتهي عهد المماليك في مصر وبلاد الشام (أسامة حسن، 2000م، ص 15).

لقد ساهمت عوامل كثيرة في ضعف الدولة المملوكية وسقوطها، ومن هذه العوامل انتشار الأمراض والأوبئة والتي فتكت بالكثير من السكان بل وحتى الأسرة الحاكمة، كما تميز عهد المماليك خاصة المرحلة الأخيرة بكثرة المؤامرات والصراعات للوصول إلى الحكم فكثرت الاغتيالات السياسية وظاهرة عزل السلاطين، (عبد الرحمان محمود، 1978م، ص 18)، ومن عوامل السقوط أيضا ارتفاع نفقات الحكام وظهر التهافت نحو كسب المال، أما العوامل الخارجية فتمثلت في

الحروب الصليبية التي انتهجتها الدول الأوروبية الحاقدة على الإسلام، واقتصاديا فقد تأثرت دولة المماليك بتحول الطرق التجارية إلى راس الرجاء الصالح وسيطرة الدول الأوروبية على الطرق التجارية وبسبب هذه العوامل أصبحت هذه الدولة عاجزة عن الدفاع عن نفسها أمام العثمانيين.

2. الصراع المملوكي الصليبي:

كانت معاقل الإمارات الصليبية عند قيام الدولة المملوكية تمتد على طول الساحل الشامي من قيلقية شمالا حتى يافا جنوباً، وتشكلت هذه الإمارات من وحدتين أساسيتين هما مملكة بيت المقدس وعاصمتها عكا وإمارة أنطاكية طرابلس، هذا الوجود في هذه المنطقة جعل التصادم مع المماليك أمر واقع لا مفر منه، ومن أهم الشخصيات المملوكية التي واجهت الصليبيين السلطان الظاهر بيبرس (658-678هـ/1260-1279م) والسلطان قلاوون (678-689هـ/1279-1290م) وأسرته.

لقد اتسمت سياسة المماليك في البداية بالطابع السلمي اتجاه الصليبيين في الشام، وذلك نظرا للاهتمام بالأوضاع الداخلية وبناء دولتهم والقضاء على مشكل الأيوبيين في الشام، إضافة الى تنامي الخطر المغولي خاصة بعد سقوط بغداد (656هـ-1258م)، لذلك كان تركيز المماليك على الخطر المغولي أكثر من غيره، إلا أن هذه السياسة تغيرت فيما بعد خاصة مع ظهور الظاهر بيبرس، لقد عمل هذا الأخير على التقرب من أعداء الصليبيين وخاصة الإمبراطورية البيزنطية وبعض الإمارات المتوسطية التي كانت تسعى إلى الحفاظ على دورها التجاري، بينما كان هدف المماليك قطع الإمدادات عن الصليبيين، وبصفة عامة فإن هذه التحالفات والاتفاقيات كان هدفها تحقيق مصالح إستراتيجية وعسكرية وما يدل على ذلك هو نقدها وخرق الهدنة من طرف بعض السلاطين في مواقف عديدة. (مصطفى محمود نادية، 1996م، ص 27)

ورغم هذه السياسة لا أن الصراع مع الصليبيين لم يتوقف طيلة مرحلة المماليك، فمع قيام دولة المماليك بدأ الصراع من خلال الحملة التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا على مصر عن طريق دمياط، وفي هذه الأثناء وقع نجم الدين أيوب مريضا وتوفي سنة 647هـ/1249م في مواجهة الصليبيين إلا أن زوجته شجرة الدر وبفضل حكمها

أدركت الخطر الذي كان يهدد المسلمين فأخفت وفاته وأرسلت لابنه توران شاه الذي كان متواجدا في العراق ليتولى العرش. (المقريزي تقي الدين، 1997م، ص 356)

ومن أهم الأعمال التي قام بها توران شاه بعد توليه العرش هو حصار الصليبيين، ومنع الإمدادات من الوصول إليهم عبر دمياط وقطع طريق العودة عنهم، مما اضطر الملك لويس التاسع إلى طلب الهدنة إلا أن المماليك رفضوا هذا الطلب وتمكنوا من هزيمة الصليبيين وأسر الملك لويس التاسع.

وعندما تولت شجرة الدر السلطة فاوضت لويس التاسع عام 648هـ-1250م، وتم عقد اتفاق بينهما نص على الرحيل من مصر وتسليم دمياط وإطلاق جميع أسرى المسلمين وأن يدفع فدية قدرها ثمانية ألف دينار كفدية لنفسه وللأسرى الصليبيين، (العبادي احمد المختار، 2000م، ص 117) وبموجبها تطلق الحكومة المصرية جميع الأسرى، وكانت دمياط لم تزال مع الصليبيين والعساكر الإسلامية محاطة بها والملكة ماغريتا تقيم بها وهي حامل، فوضعت ولدا سمته تريستان، أي الحزين، ولما وصل الملك لويس التاسع إلى دمياط سلمها للعساكر الإسلامية وركب البحر مع زوجته قاصدا عكا، وهكذا فشلت حملة لويس التاسع في تحقيق أهدافها والسيطرة على بيت المقدس هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد فشلت المؤامرات الكثيرة لإشعال الصراع بين الأيوبيين في بلاد الشام والمماليك في مصر، وفي هذا يقول الشاعر جمال الدين يحيى بن مطروح.

قل للفرنسيس إذا جئته مقال صدق عن قتول نصيح
أتيت مصرا تبتغي ملكها تحسب أن الزمر ياطبل ريح
وكل أصحابك أوردتهم بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسین ألفا لا ترى منهم غير قتيل أو أسير جريح. (الحريري سيد علي، 1985م، ص 323)

إلا أن لويس التاسع وأثناء قيادته للحملة الثامن على تونس توفي سنة 669هـ/1270م، إلا أنه بعد تولي السلطة في دولة المماليك السلطان قطز شهد الصراع مع الصليبيين بعض التوقف خاصة عندما ظهر الخطر المغولي على البلاد العربية، فخصص هذا السلطان كل جهوده لوقف الزحف المغولي على المنطقة العربية.

3. دور الظاهر بيبرس في محاربة الصليبيين:

بعد مقتل المظفر قطز (658هـ-1260م) تشاور الأمراء حول اختيار حاكم للبلاد يملكونه عليهم، فوقع اختيارهم على ركن الدين بيبرس البندقداري. (ينظر التعليق رقم 8) فبايعه الأمراء بمختلف طبقاتهم ودخل قلعة الجبل في الخامس عشر من ذي القعدة سنة 658هـ أكتوبر 1260م ثم تلقب بالظاهر، (عاشور سعيد عبد الفتاح، 1976م، ص178) ومن أهم أعماله إحيائه للخلافة العباسية في مصر بعد أن قضى عليها التتار في بغداد، وهذا ما أكسبه سلطة شرعية، كما استحدث ولاية العهد بتعيينه ابنه السعيد بركة خان ولياً للعهد وهو الذي اغتصب قلاوون عرشه بعد ذلك، كما قام ببناء العديد من المساجد والحصون والقلاع، (ابن شداد بهاء الدين، 1983م، ص347) كما أولى اهتمام كبير للأسطول البحري ودور صناعة السفن في مصر حيث كان يشرف بنفسه على هذه الصناعة، ومن جهة أخرى فقد اعتنى بالجيش حيث بلغ في عهده أربعين إلْقاً فارساً، متكوناً من عدة أقسام أبرزها، المماليك السلطانية (ينظر التعليق رقم 9) يتمركزون في القاهرة ينتقلون مع السلطان في حروبه وأسفاره وهم الذين يتولون أعلى الوظائف قدراً وأكبرها إقطاعاً، ثم جيوش الأمراء وهي تابعة للأمراء وولاة الأقاليم، يتمركزون خارج العاصمة، أما أجناد الحلقة فيتألفون من المقاتلين الأحرار من أبناء المماليك يعرفون (بأولاد الناس) ويمثلون قوات الاحتياط. (قاسم عبه قاسم، 1996م، ص159)

أما من الناحية العسكرية فقد كرس معظم حكمه وهمه في مواجهة الصليبيين ومحاربتهم بكل ما ملك من جهد، ففي مدة عشر سنوات لم يمر عام دون أن يقوم بشن حملة عسكرية ضد الصليبيين يسترجع من خلالها بعض المناطق التي أخذوها من المسلمين. (ابن كثير أبو الفداء، 1988م، ص248)

لقد بدأت المواجهة بين الصليبيين والظاهر بيبرس سنة 663هـ/1265م على شكل مناوشات حيث عندما ذهب الى الشام بنفسه في هذه السنة كانت حركاته تدل على أنه كان يتفقد قواته ويوزعها توزيعاً استراتيجياً لتنفيذ خطته، أحس الصليبيين بالخطر فسارعت بعض الإمارات الى طلب السلام والمهادنة إلا أنه كان يقابل ذلك بالرفض مبدئياً

إصراره على القتال، حيث طلبهم بإرجاع المناطق التي أخذوها وإطلاق الأسرى المسلمين جميعهم. (المقريري تقي الدين، 1997م، ص 485)

وفي هذه السنة أيضا حاصر مجموعة من المدن التي كان الصليبيون يسيطرون عليها وفتحها، حيث كانت البداية بمدينة قيسارية ثم سار إلى قلعة أرسوف البحرية ففتحها رغم المقاومة الشديدة، وفي السنة الموالية هاجم السلطان قاعدة استراتيجية صلبة في الشام وهي قلعة صفد.

وبهذه الانتصارات أصبح الصليبيون أمام وضع خطير دفع بهم إلى استعطاف السلطان حيث سارعت بعض القوى إلى عقد هدنة مع السلطان بيبرس على الأساس مبدأ المناصفة أو المشاركة، أي تصبح له نسبة من غلاتهم ومنتجاتهم، وكان من أطرف هذه الاتفاقيات تلك التي عقدها مع الملكة إيزبيلا ملكة بيروت سنة 667هـ/ 1268م، كانت مدتها عشر سنوات وقد كانت ثقة الملكة كبيرة في السلطان إلى درجة أنها كانت إذا سافرت تستودع بلادها لدى السلطان بيبرس، كما نصت هذه الاتفاقية على تحديد حدود مملكة بيروت وعلى إيزبيلا التزام الحياد أثناء إعلان الحرب على السلطان بيبرس. (العبادي وسالم عبد العزيز، 1981م، ص 248)

وفي سنة 666هـ/ 1267م توجه الظاهر بيبرس بعساكره إلى الشام حيث تمكن من فتح يافا وأخذها من الصليبيين، ثم وجه السلطان بيبرس جهده نحو إمارتين صليبيتين كانتا قد تحالفت مع التتار وهما إمارة طرابلس وأنطاكية، فكانت البداية بمهاجمة المناطق المحيطة بأنطاكية حيث استولى على العديد من القلاع مقسمًا جيشه إلى ثلاثة فرق، الأولى استولت على ميناء السويدية لقطع الإمدادات البحرية، والفرقة الثانية أوقفت الإمدادات التي يمكن أن تأتي أرمنية الصغرى، أما الفرقة الثالثة فحاصرت أنطاكية، وكان الظاهر بيبرس يرغب في فتحها صلحًا إلا أن هذه المحاولة فشلت فقام بغزو المدينة وفتحها وغنم منها الكثير من الأموال والأسرى وكان ذلك في رمضان سنة 666هـ/ 1268م. (ابن كثير أبو الفداء، 1988م، ص 266)

وبعد فتح الملك الظاهر لأنطاكية استولى على بغراس التي كان أهلها قد هربوا منها وتركوا الحصن خاليًا لذلك ضمها السلطان للحصون الإسلامية، وفي سنة 669هـ/ 1270م توجه الملك الظاهر بيبرس من الديار المصرية إلى الشام، ونازل حصن

الأكراد وحاصره ثم فتحه، ثم رحل إلى حضن عكا وفتحته كذلك ومنه تحول إلى قلعة العليقة على الساحل السوري والتي كانت خاضعة للصليبيين وتسلمها، ومنها سار إلى دمشق ومنها إلى حصن القرين وتسلمه بالأمان وأمر بهدمه وعاد إلى مصر، وفي هذا الوقت أيضا ونظراً لأن حاكم قبرص كان يهدد السفن الإسلامية في البحر المتوسط ويقدم الدعم للصليبيين مما جعل السلطان يوجه لها حملة بحرية ليؤدبه، إلا أن هذه الحملة فشلت بسبب العواصف، (عاشور سعيد عبد الفتاح، 1976م، ص 143) إلا أن هذا الفشل لم يثنيه عن مواصلة الجهاد حيث تمكن من مواصلة الفتوحات في مناطق عديدة كانت تحت سيطرة الصليبيين. موير وليام، 1995م، ص 56)

وفي هذه السنة هاجم طرابلس من جديد وكان أن يفتحها ولكن وصلته أنباء عن خروج الحملة الصليبية الثامنة فأخذ يستعد لمواجهتها إلا أن الحملة اتجهت نحو تونس، فعاد إلى مهاجمة طرابلس التي طلب حاكمها الصلح فوافق السلطان بيبرس عندما وصلته أنباء عن خروج حملة صليبية إنجليزية بقيادة الأمير إدوارد إلى عكا، وكانت مدة الصلح عشر سنوات، كما اتبع الظاهر بيبرس نفس سياسة الشدة مع مملكة أرمينيا الصغرى، وفي سنة 674هـ/1275م جاء إلى سوريا أباكا خان ابن هولاكو خان وحاصر البيرة للمرة الثانية فتوجه إليه الأمير قلاوون بفرقة من الجيش المصري، وتمكن من التغلب عليه وأرجعه من حيث أتى، فأعجب به السلطان الظاهر بيبرس وقام بتزويج ابنة قلاوون غازية خاتون لابنه السعيد بركة خان، حتى يضمن لابنه مستقبلاً آمناً، وفي هذه السنة أيضا تمكن الظاهر بيبرس من فتح بلاد النوبة و برقة. (الحريري سيد علي، 1985م، ص 345)

وبصفة عامة فقد تمكن الظاهر بيبرس خلال مدة حكمه التي قاربت 17 سنة من تحرير العديد من المناطق التي كانت تحت قبضة الصليبيين بحيث لم يبق إلا بعض المدن الساحلية مثل عكا وصور وصيد غيرها، ورغم ذلك فإن صراع المماليك مع الصليبيين لم يتوقف بنهاية حكم الظاهر بيبرس بل تجدد في فترات عديدة كان أبرزها أيام السلطان الناصر قلاوون.

5. الصراع المملوكي الصليبي في عهد السلطان الناصر قلاوون:

السلطان الملك المنصور سيف الدين أبو المعالي أبو الفتوح قلاوون بن عبد الله الألفي التركي الصالحي اللخمي، أصله من قفجاق وبيع بألف دينار لذلك سمي بالفي، ملكه صالح أيوب وترقى إلى رتبة أتابك العسكر في عهد العادل سلامش بن الظاهر بيبرس، تولى الحكم في 10 رجب سنة 678هـ/ 1280م، (المنصوري بيبرس، 1993م، ص173) وهو الذي يعود له الفضل في الاعتماد على طائفة جديدة من المماليك خاصة به تختلف أصولها عن الطوائف المملوكية الأخرى، حيث اختار عنصرًا من القوقاز أطلق عليهم اسم الجركس أو الشركس، أسكنهم في أبراج القلعة وحرص على تربيتهم تربية دينية وعسكرية، بلغ عددهم في نهاية عهده أكثر من ثلاثة آلاف مملوك. (الشرقاوي عبد الله، 1996م، ص100)

ومن أبرز المشاكل التي واجهت قلاوون في بداية حكمه هو تمرد نائب دمشق الأمير شمس الدين سنقر الأشقر الذي أعلن نفسه سلطانًا وتلقب بالكامل، واستولى على عدة حصون بالشام ثم اتصل بأعداء المسلمين من مغول و صليبيين للاستعانة بهم ضد قلاوون، وقد استغل المغول هذه الفرصة واستولوا على بعض الحصون بالشام وكان أبرزها مدينة حلب، والشئ نفسه ينطبق على الصليبيين الذين كان هدفهم هو استغلال هذه الفرصة من أجل استرجاع قلعة الأكراد إلا أنهم فشلوا في ذلك، (ابن ثغري بردي جمال الدين، 1992م، ص257) وعندما وصلت الأخبار إلى السلطان قلاوون عن هذه المحاولات والجرائم قرر الانتقام من الصليبيين فخرج من مصر متوجهاً إلى الشام للقضاء على هذا الخطر، إلا أنه علم بمؤامرة داخلية نفذها المماليك الظاهرية التي تحالفت مع الصليبيين، لذلك أصر على محاربتهم وتم القضاء عليهم وأعاد النظام والانضباط إلى جيشه.

وقد اتبع السلطان قلاوون سياسة استهدفت التفرقة بين خصومه أي المغول والصليبيين وسنقر الأشقر، والعمل على عدم تحالفهم بالاعتبار ذلك يكون خطراً كبيراً على سلطته، لذلك اختار السلطان قلاوون أن يوجه ضربة قوية للمغول فسارع إلى الصلح مع الصليبيين سنة 680هـ/ 1281م لمدة عشر سنوات ممثلة في الداوية والإسبترية وبوهيموند السابع حاكم طرابلس، وفي الوقت نفسه فقد عفا عن سنقر وأجزل له العطاء وعينه حاكماً على إقليم أنطاكية، وهكذا تفرغ لمواجهة المغول وبالفعل

تمكن سنة 680هـ/1281م من إلحاق الهزيمة بالتتار الذين فروا الى شرق الفرات.(المقريزي تقي الدين، 1997م، ص 211)

وبعد هذا الانتصار قرر الناصر الانتقام من الصليبيين ففي سنة 684هـ/1285م هاجم مركز فرسان الاسبتارية في حصن المرقب، وفتحه بعد حصار دام شهرا، وهذا ما دفع ببوهيموند السابع صاحب طرابلس الى طلب الصلح من السلطان قلاوون، حيث تنازل عن بعض الحصون وقدم له هديا من الأموال لإرضائه، والشئ نفسه حدث مع إمارة صور التي طالبت الصلح وعقدت هدنة لمدة عشر سنوات. (حمدي عبد المنعم، 2000م، ص 201)

وفي سنة 686هـ/1287م استولى قلاوون على مدينة اللاذقية التي كانت آخر أملاك إمارة أنطاكية المتبقية للصليبيين، وبرر هجومه هذا بوفاة بوهيموند السابع، وفي سنة 688هـ/1289م جاء دور مدينة طرابلس، فجهز السلطان قلاوون جيش كبير بلغ أكثر من أربعين ألف فارس ومائة ألف من المشاة، وقد دار قتال عنيف بين الفريقين وتمكن المسلمون من السيطرة على طرابلس في ربيع الثاني 688هـ/1289م، حيث دخلها الجيش الإسلامي بعد حصار طويل فغنموا منها أموال كثيرة، ثم سيطروا على جزيرة قريبة منها يقطنها الصليبيين فاقتحمها الجيش الإسلامي وقتلوا معظم الرجال وغنموا النساء كما سيطر المسلمون أيضا على المناطق القريبة من طرابلس مثل بيروت وجبلية، (المقريزي تقي الدين، 1997م، ص 211) وبذلك لم يبق للصليبيين في بلاد الشام سوى صور وصيدا وعكا التي كانت مركز إمارة بيت المقدس، وبعد استيلاء السلطان قلاوون على طرابلس اتجه الى دمشق حيث وافق على تجديد الهدنة لمدة عشر سنوات مع الصليبيين ونظرا لاعتداء المسيحيين على المسلمين في مدينة عكا دفع بالسلطان إلى العمل على الانتقام منهم، لذلك بدأ يستعد لقيادة حملة إلى عكا إلا أن الأجل أدركه وهو في طريقه لتحقيق هذا الهدف وذلك سنة 689هـ/1290م، بعد أن حكم 11 سنة و3 أشهر و6 أيام، ومن آثاره الباقية الى اليوم جامع ومقامه الذي دفن به والبيمارستان قرب جامع نجم الدين أيوب، وفي هذه الآثار تتجلى قوة وعظمة سلاطين المماليك ومهارة الصناعات.

وبعد وفاة السلطان خلفه ابنه الأشرف خليل (679-692هـ/1293-1299م)، وهو السلطان الذي يوصف بأنه آخر السلاطين المماليك الأقوياء في مشروع الصراع ضد الصليبيين، وقد قام بهذا الدور وعمره لم يتجاوز العشرين عامًا، وقد سار على نفس سياسة أبيه تجاه الصليبيين، فاتجه إلى عكا وفرض عليها حصارًا دام أربعة وأربعين يومًا، وقد كاد الصليبيون من تحقيق النصر في البداية لولا العدد الكبير للجيش الإسلامي واستخدامه للمنجنيقات، وهذا ما جعل الصليبيون يتراجعون منهزمين، وتمكن الجيش الإسلامي من فتح المدينة عنوة في يوم الجمعة 17 جادي الثاني سنة 690هـ/1291م، فهرب منها أهلها في المراكب عبر البحر إلى جزيرة قبرص وأوروبا، وقد غنم المسلمون أموالًا كثيرة وقتلوا ما بقي فيها من الصليبيين، وبعدها أمر السلطان بهدم مدينة عكا، بهذا الانتصار انتقم المسلمون لهزيمة صلاح الدين في عكا سنة 587هـ/1187م، والتي كانت في اليوم نفسه أي الجمعة 17 جمادي الثانية. (عوض محمد مؤنس، 1999م، ص354).

وبعد هذا الانتصار أصيب الصليبيون برعب شديد، فخرجوا من صيدا وبيروت ودخلها المسلمون دون قتال ثم هربوا أيضًا من صور فتسلمها السلطان ثم تسلم طرطوس، وبهذا انقرضت دولة الصليبيين في بلاد الشام، و انتهى ذلك الصراع الطويل بين الصليبيين والمماليك في بلاد الشام (المطوي محمد العروسي، 1982م، ص132) لقد تمكن المماليك وبفضل شجاعة بعض السلاطين وحبهم للجهاد والدفاع عن الدين الإسلامي وارتباطهم الشديد بالمنطقة العربية، من توقيف الحملات الصليبية على البلاد الإسلامية رغم أن هؤلاء السلاطين كانوا من العبيد وتربوا في خدمة سلاطين بني أيوب، وقد سجل التاريخ انتصارات هؤلاء السلاطين بأحرف من ذهب في صفحات التاريخ الإسلامي.

خاتمة:

- لقد تمكنت هذه الدولة المملوكية ورغم أنها نشأت على قوة العبيد المجلوبين من آسيا الوسطى وبلاد القفجان ثم تم تحريرهم بعد تربيتهم تربية دينية وعسكرية، من تحقيق العديد من الانتصارات سواء على التتار أو الصليبيين.

- لقد مر على حكم هذه الدولة العديد من الأباطال الذين خلد التاريخ أسمائهم من خلال الإنجازات العظيمة كما هو الحال بالنسبة للظاهر بيبرس وسيف الدين قطز والناصر قلاوون والظاهر برقوق.

- حكمت هذه الدولة مصر وبلاد الشام أكثر من 250 سنة كان معظم أيامها في المواجهات العسكرية مع القوى المحيطة بها سواء التتار أو الصليبيين وكذلك بعض القوى الداخلية المتحالفة مع أعداء الدولة.

- وقد كان من أهم إنجازات هذه الدولة وخاصة السلطان الظاهر بيبرس هو إحياء الخلافة الإسلامية في القاهرة بعدما كانت قد سقطت في بغداد على يد المغول وإن كان قد استخدمها كغطاء شرعي لسلطته إلا أنه أعاد للمسلمين خلافتهم الشرعية.

- تمكنت هذه الدولة ورغم الخلافات والمشاكل الداخلية من إنهاء الوجود الصليبي في بلاد الشام وإعادة المناطق الإسلامية الى سابق عهدها.

- يعتبر السلطان الظاهر بيبرس والناصر قلاوون من بين أبرز السلاطين الذين وجهوا كل جهدهما ووقتتهما لمواجهة الصليبيين وشكلا الخطر الدائم عليهم.

- إن الانتصارات الكبيرة التي حققها المماليك سواء أمام الصليبيين أو المغول تؤكد نجاعة الخطط العسكرية التي اعتمدها السلاطين في هذه المواجهة.

- لقد أدت قوة دولة المماليك الى تغير موازين القوى في المنطقة، فبعدما كان الصليبيون على أهبة السيطرة على دمشق ومصر مناطق أخرى، انتهى أمرهم بطردهم من كل بلاد الشام والمناطق الساحلية.

- كان أكبر خطر واجهته دولة المماليك هو ذلك الخطر المتمثل في القوة العثمانية التي توسعت في آسيا الصغرى وتمكنت في الأخير من القضاء على المماليك في بلاد الشام في معركة مرج دابق سنة 932هـ/ 1516م وفي مصر في معركة الريدانية سنة 923هـ/ 1517م وبذلك تمت السيطرة العثمانية على مصر وبلاد الشام.

- إن الصليبية تمثل ظاهرة تاريخية مستمرة ولا تزال قائمة إلى يومنا هذا، لكن بأشكال جديدة ولم تعد بنفس الصورة العدائية التقليدية، ويمكن أن نفهم هذا من خلال حركة الاستعمار الحديث في البلاد العربية.

التعليق:

التعليق رقم 01: يمر المملوك بمراحل اجتماعية مختلفة مع سيده والذي يطق عليه في عرف الممالك أستاذه، فالنخاس أو التاجر هو الاستاد الأول للمملوك، فهو سيده الذي جلبه وعرضه للبيع، فلا يعرف أبا ولا أسرة سوى التاجر الذي جلبه حتى أن المملوك يأخذ اسم التاجر الذي يقوم ببيعه في أغلب الأحيان أو يلقب بثمانه الذي بيع به فمثلا السلطان قلاوون يلقب بالألفي لأنه بيع بألف دينار، ويبقى هذا الولاء للسيد مستمر مع المملوك حتى عندما يرتقي في المناصب، وعادة ما ينتقم المملوك من مقتل سيده كما حدث مع السلطان قطز الذي قتل على يد الظاهر بيبرس لأن قطز شارك في مقتل الأمير أقطاي أستاذ الظاهر بيبرس. (عبد الحكيم منصور، د.ت، ص 34)

التعليق رقم 02: المعتصم بالله أبو أحمد عبد الله، آخر الخلفاء العباسيين ولد سنة 609هـ/1212م، وتولى الخلافة سنة 640هـ/1242م، وقتل على يد هولاكو سنة 656هـ/1258م، (ابن العماد الحنبلي، 1986م، ص 514)

التعليق رقم 03: نجم الدين أيوب بن الملك الكامل ولد سنة 603هـ/1206م، بالقاهرة ملك الديار المصرية سنة 637هـ/1239م، توفي أثناء مواجهة الصبيين، 647هـ/1249م، وخلفه ابنه توران شاه، (شمس الدين الذهبي، 1997م، ص 439).

التعليق رقم 04: قفجان فرع من أتراك على عادة البدو، مكانهم شمال البحر الأسود في القوقاز، (القلقشندي، 1913م، ص 485).

التعليق رقم 05: شجرة الدر أم خليل من أصل تركي، اشتراها نجم الدين أيوب وتزوجها وهي أول سلاطين الممالك قتلت من طرف الممالك بعدما قتلت زوجها الثاني عز الدين أيبك سنة 655هـ-1257م. (ابن تغري بردي، 1992م ص 373).

التعليق رقم 06: السلطان قطز خرج من صفوف العبيد المعروضين في سوق النخاسة ليقود صفوف المقاتلين ضد التتار في عين جالوت، ويلحق بهم هزيمة أطفأت النار التي كانت قد احرق مشرق العالم الإسلامي، وقطز هو محود بن مودود من سلالة السلطان جلال الدين خوارزم شاه حاكم بلاد المشرق والذي قضى التتار على مملكته، نقل إلى مصر وأصبح مملوك صلاح أيوب بن الكامل، ثم انتقل إلى عز الدين أيبك التركماني،

قتل بعد معركة عين جالوت من قبل الظاهر بيبرس سنة 658هـ/ 1260م. (ابن الوردي، 1996م، ص 178)

التعليق رقم 07: السلطان قلاوون سيف الدين الصالحي النجمي، أصله من قفجان بيع بألف دينار لذلك سمي بالألفي، ملكه صالح أيوب، كان أكبر الأمراء زمن الظاهر بيبرس، ثم ارتقى إلى رتبة أتابك العسكر في عهد العادل سلامش ابن الظاهر بيبرس، تولى السلطة سنة 678هـ/ 1280م، وأقام في السلطة إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر، توفي 689هـ/ 1289م. (ابن العماد، 1986م، ص 715)

التعليق رقم 09: الظاهر ركن الدين بيبرس تركي الجنس اشتراه الملك الصالح نجم الدين أيوب وترقى في خدمته واستفاد من أخلاقه، وبعد وفات الملك انتقل إلى خدمة ابنه الملك توران شاه، وبعد مقتل الفارس أقطاي خرج من القاهرة إلى بلاد الشام ثم عاد إلى مصر، شارك مع السلطان قطز في قتال المغول، ولما قتل السلطان قطز ببيع للسلطنة وتلقب الظاهر، وكان ملكا شجاعا مهابا فتح عدة قلاع وحصون، توفي سنة 676هـ/ 1277م بعد أن حكم سبع عشرة سنة. (ابن الوكيل، 1999م، ص 61).

9. المماليك السلطانية، هم أعظم الأجناد شأنًا وارفهم قدرًا وأوفرهم إقطاعًا، وهم المماليك الذين اشتراهم السلطان أو ورثهم من الملك الذي كان قبله، (محمد أحمد دهمان، 1990م، ص 145)

- قائمة المصادر والمراجع

1. ابن الوكيل شهاب الدين، 1994م، تحفة الأحاب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، تح محمد الشتاوي دار الأفاق العربية.
2. ابن الوردي زين الدين، 1996م، تاريخ ابن الوردي، ج 2 دار الكتب العلمية بيروت.
3. ابن كثير أبو الفداء، 1988م، البداية والنهاية، ج 13 مطبعة المعارف بيروت.
4. ابن العماد الحنبلي، 1986م، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح عبد القادر الارناؤوط، دار ابن كثير بيروت.
5. ابن شداد بهاء الدين، 1983م، تاريخ الملك الظاهر، دار النشر فرانز شتاين. مركز الطباعة الجديد بيروت

- 6- أبو شامة المقدسي، 1992م، عيون الروضتين في تاريخ الدولتين النورية والصالحية، تح أحمد البيسومي، منشورات وزارة الثقافة دمشق
- 7- ابن ثغري بردي جمال الدين، 1990م، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج7 تح محمد أمين ونبل محمد، دار الكتب القاهرة.
- 8- ابن ثغري بردي جمال الدين، 1992م، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج7 تح محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت.
- 9- ألبير وليم مور، 1995م، تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي القاهرة.
- 10- أسامة حسن، 2000م، طومان باي آخر سلاطين المماليك، دار الأمل، جيزة، مصر.
- 11- بيبيرس المنصوري، 1993م، مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة 703هـ، تح عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية.
- 12- دهمان محمد أحمد، 1990م، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر بيروت ط1.
- 13- الحريري سيد علي، 1985م، الأخبار السنية في الحروب الصليبية، ط3، الزهراء للإعلام العربي.
- 14- حمدي عبد المنعم، 2000م، دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار المعرفة الجامعية.
- 15- المسعودي الحسن بن علي، 2003م، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج4 تح مصطفى السيد المكتبة التوفيقية.
- 16- المقريزي تقي الدين، 1997م، السلوك لمعرفة الملوك ج1 تح محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت.
- 17- المطوي محمد العروسي، 1982م، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي بيروت.
- 18- نادبة محمود مصطفى، 1996م، العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي الى بداية الهجمة الأوروبية الثانية، المعهد العالي للفكر الإسلامي، القاهرة.
- 19- العبادي أحمد مختار، 2000م، في التاريخ الأيوبي والمملوكي، مؤسسة شباب الجامعة مصر.
- 20- العبادي أحمد مختار وعبد العزيز سالم، 1981م، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، دار النهضة العربية بيروت.

21. عاشور سعيد عبد الفتاح ر1975م، العصر المملوكي في مصر والشام، دار النهضة العربية القاهرة.
22. عبد الحكيم منصور، د ت، السلطان سيف الدين قطز بطل عين جالوت وقاهر المغول، دار الكتاب العربي القاهرة.
23. عوض مؤنس محمد، 1999م، الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب في القرنين 12، 13م/ 6، 7هـ ط1 عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.
24. قاسم عبده قاسم، 1996م، الايوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة.
25. الشرقاوي عبد الله، 1996م، تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الملوك والسلطين، تح رحاب عبد الحميد مكتبة مدبولي، القاهرة.
26. شمس الدين الذهبي، 1997م، سير أعلام النبلاء، دار الفكر بيروت.